سورة الواقعة

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧]

آهٍ من الإنسان القاسي القلب!... إن الله تعالى بعلمه الأزلي يعلم هذا الوضع فيقوم بتعزيز ما يريد بيانه له بالقسم.

على الإنسان أن يستحي من هذا ويخجل، ويتصبب عرقا، وترتجف شفتاه، وأن يهتز وهو يقرأ مثل هذه الآيات. فرب هذا الإنسان لكي يبين ويشرح له بأن القرآن كتاب كريم، ويبرهن على ذلك يحشد الأدلة تلو الأدلة ثم يضيف إليها قسما عظيما.

هناك أمثلة كثيرة في القرآن على هذا القسم. فالله تعالى يقسم أحياناً بالنجوم وأحياناً بالشمس أو بالقمر أو بالسماوات. ويقسم أحيانا بنعمه الأرضية: بالزيتون وبالتين. وقسمه بالطور من هذا النوع أيضاً. ويقسم أحياناً بالنهار وبالليل. ولا شك أن هناك حكماً وأسراراً عديدة وراء أمثال هذا القسم.

وفي آية ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم: ١) قسم بالنجم. ويمكن فهم الآتي من هذا القسم: "قسماً بالنجم الذي يعرج إلى السماء ثم يرجع منها". لذا نجد هنا توافقا من زاوية كون هذه السورة تتناول مسألة معراج النبي ﷺ. فإذا كان هذا هو المقصود فإن أحد الاحتمالات هو أن هذا النجم هو النبي ﷺ نفسه. أجل... فقد ذهب من الخلق إلى الخالق، ثم رجع من عند الخالق إلى الخلق.

أجل!... إن الرسول ﷺ الذي لم يزغ بصره أمام مناظر الجنة وأمام جميع أشكال الجمال والآيات التي أراها له ربه تعالى قفل راجعاً إلى دنيا الفساد هذه ليحدث الآخرين بالنعم التي أنعمها الله عليه وليأخذ بأيدينا ويرشدنا... وهذا الأمر مرتبط بحقيقة ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم: ١) وأحد التوجيهات الموجودة فيها. والقسَم هنا بالكرامة وبالشأن السامي لنبينا ﷺ يحمل دلالات ومعانيَ عديدة. أجل!... ذلك النجم هو نبينا ﷺ. وهو علاوة على المزايا والفضائل التي كان يملكها في الأصل، رجع -بعد أن أصبح مظهرا لنعم عديدة في المعراج- محمدا آخر، فكان رجوعه ونـــزوله شيئاً فريداً ومتميزاً لم يحدث في التاريخ لأي شخص آخر، وحادثة متميزة. لذا وبناءً على فضائله الأصلية ثم ما اكتسبه بالمعراج يقسم الله تعالى به. وفي سورة الإسراء يرى بعض المفسرين أن آيـــة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١) تشير إلى الرســـول ﷺ، أي أن الله تعالى يسند بعض صفاته إلى رسوله ﷺ. وهنا يقسم الله تعالى به وبمنـــزلته الكبيرة عنده عندما يقول ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم: ١).

وفي آية ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (الشمس: ١) يقسم الله تعالى بالشمس وبالضحى. وفي آية ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَـــجَى﴾ (الضحى: ٢) يقسم تعالى بالليل لكونه وقتا للراحة وبالظلام الذي يغطي الليل. ثم يقسم بالنهار الذي يخرق الليل ويزيله. أي يقسم بالدور الدائم المتكرر الموجود في الكون وبالنعم الإلهية والألطاف المهداة إلى الناس.

وفي موضع آخر نرى القسم الآتي ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِـــينِينَ﴾ (التين: ١-٢) أي القسم بالتين وبالزيتون وبالطور. والطور مكان مقدس كان مظهرا للخطاب الإلهي لموسى عليه السلام. وهذا الفضل الإلهي لموسى عليه السلام كان نقطة البداية لبعث أمة. وكان موسى عليه السلام يأخذ هناك الأوامر ويوقظ بها شعبا للحياة الحقيقية. لذا كان الطور بقعة يستحق القسم بـــها.

وكما قلنا في البداية فهناك العديد من أمثلة القسم هذه في القرآن الكريم. ومن أمثلة هذا القسم هو القسم بمواقع النجوم.

لقد قيل ما يأتي منذ القديم:

١- النجوم مهمة للإنسان في كل عهد وزمان. فقد وجدت علاقة بين النجوم وبين الإنسان على الدوام. وأقل هذه العلاقة اهتداء الإنسان بالنجوم وتعيينه اتجاهه بها. وتشير آية أخرى إلى هذه الحقيقة فتقول ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦).

وعلاوة على تعيين الجهات والمواقع بالنجوم في البر والبحر، فإن كل نجم وكل مجموعة من النجوم تشير إلى النظام الدقيق الموجود في الكون فتقوم بلسان التناغم والنظام وبلسان الحقائق الموجودة وراء الأستار همسات في قلوبنا تحركها فتكون وسيلة للهداية مثل نجمة قرآنية لذا نرى الله تعالى يقول ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. ومن يدري فلعل وجود هذه العلاقة بين النجوم وبين الإنسان هي السبب في قسم الله تعالى بمواقع النجوم. لأن النجوم إن لم تكن موجودة في مواقع معينة ومعلومة ما كان باستطاعة الإنسان الاستفادة منها بهذا الشكل.

٢- لكي تصل الشمس والمجموعة الشمسية لحالها الحاضر، وكذلك لكي تكسب الدنيا شكلها الحالي يجب توفر المئات من الشروط. فمثلا هروب الغازات من الغلاف الجوي سيؤدي إلى تخلخل التوازنات وإلى خلل في بنية الغلاف الجوي، فلا يعود ملائما للحياة.

وعندما ندقق وندرك هذا لا يسعنا إلا الانبهار والإعجاب، ونقوم باستنباط الأدلة منه على وجود الله وعلى وحدانيته. لذا فقسم الله تعالى بهذه النجوم وبمواقعها والتي تشكل دليلاً عليه وعلى وحدانيته شيء معقول وفي محله. وإذا خرجنا خارج المجموعة الشمسية وضمن مجرتنا مجرة درب التبانة نرى مجموعات أخرى عديدة فيها. وكل مجموعة موضوعة في مكانها وفي موقعها الصحيح. إن تصادم ذرتين فقط ببعضهما يؤدي إلى قيام القيامة فما بالك بتصادم هذه الأجسام الهائلة في الفضاء الكوني نتيجة أي

خلل في التوازن. إن الإنسان ليرتعب من مجرد التفكير في هذا. ومع أنه كان من المفروض ظهور خلل في التوازن نتيجة هذا التعقيد الشديد ونتيجة هذه الكثرة في الأجسام في الكون. إلا أن النجوم موجودة ضمن نظام مذهل بقدرة الله تعالى. ومع أننا نحاول تفسير هذا التوازن بقوى الجذب والدفع، إلا أن وراء هذا النظام الدقيق توجد القدرة اللانهائية لله تعالى. والله تعالى ينبهنا إلى هذا بقوله ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النّجُومِ﴾ (الواقعة: ٧٥) ويجلب نظرنا إلى تدبيره وتصريفه للأمور.

٣- يمكن الانتقال من هذه الآية إلى أمر آخر وهو أن النجوم موجودة في أماكنها الصحيحة بشكل دقيق بحيث لو قمت بدراسة حول مجموعة منها حصلت على معلومات صحيحة ومفيدة للنظم الأخرى منها. بل ربما استطعت القيام بتأسيس مدن فيها. أجل فما أن تفهم إحداها حتى تكون قد حصلت على معلومات حول الأخرى بشكل أوتوماتيكي. لأنها منظمة بشكل دقيق، وليس هناك أي عشوائية أو اضطراب أو فوضى فيها. بل هناك نظام وانتظام دقيق جداً. ولو تأملنا لرأينا في سورة الرحمن أن الله تعالى أظهر رحمانيته بهذا التوازن والنظام المذهل. فبعد اسم الله تعالى نرى أن من أوائل الأسماء الحسنى له هو اسم "الرحمن" الذي يأتي بمعنى الرزاق. ففي "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَن" يأتي اسم الرحمن بعد لفظ "الله". وقد وردت صفة الرحمن بعد لفظ الجلالة في ١١٤ مرة في القرآن في البسملة فقط. وهذه الصفة الواردة جنبا إلى جنب مع لفظ الجلالة نراها واردة في مقدمة سورة "الرحمن" مشيرة إلى أنها من أهم النعم المقدمة للإنسان.

في أول سورة "الرحمن" نجد ورود ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (الرحمن: ١)، ثم ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن: ٢) كتجل من تجليات هذه الرحمة، فهل هناك رحمة أكبر من تعليم القرآن؟ أجل!... لو لم نبصر أنوار القرآن، ولو لم تقم رسائله بتنوير عالمنا لكان الكون بالنسبة إلينا عالم مأتم عام، ولكانت الكائنات

بأجمعها بالنسبة إلينا كالتوابيت فاقدة للحياة ولا تثير عندنا سوى الوحشة والرعب والفزع. لذا فما كان باستطاعتنا رؤية ومعرفة الوجه الحقيقي والمعنى الحقيقي لأي شيء. لقد استطعنا بفضل أنوار القرآن الكريم معرفة معنى وحكمة كل شيء. وأدركنا أننا أهم أنموذج للوجود. والأمور التي لم يدركها الآخرون باسم العلم أدركناها نحن بنور القرآن فنجونا من الحيرة ومن الخوف. وعندما دققنا الوجود بروح القرآن أدركنا أمورا لم يصل الآخرون إلى مثقال خردل منها، ولم يعرفوا حتى اسمها وعنوانها. لقد أبصرنا بنوره أينما حولنا نظرنا كل شيء بوضوح وجلاء.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن:٣-٤) هنا يبين الله تعالى رحمته ورحمانيته بأنه علمنا البيان. فلو كنا بكما، وبتعبير آخر لو لم يكن في استطاعتنا أن نكون ترجمانا لهذا الكون الذي يتكلم بألف لسان، ولو لم يكن باستطاعتنا فهم البيان الرباني وتدريسه لبعضنا البعض، أي لو لم يكن فهم هذا الكون الرائع بالبيان الآتي من صفة الكلام عنده تعالى لما كان بقدرتنا فهم النقوش الدقيقة والمعاني العميقة في الكون.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن:٥) أي إن الشمس والقمر وضعا بحساب دقيق في مواضعهما، وهما يحتلان موقعاً مهماً، وإن الضوء والنور الصادر منهما عندما يصلان إلينا من خلال الغلاف الجوي ويلامسان أعيننا في صورة محببة لمنظر البدر، وتبدو من خلال هذا وجود إرادة مدهشة وضع كل شيء في مخطط محفوظ ومصان. وهذا إظهار لرحمة الله ورحمانيته بمستوى آخر. ولو لم تضع الرحمة الإلهية مثل هذا النظام القائم على حسابات دقيقة لكنا هباءً منثوراً بين الأجسام المتصادمة بعضها مع البعض الآخر. صحيح قد تتساقط أحياناً بعض الأحجار من السماء، ولكنها لا تشكل أي خطر جدي، ولا أي مشكلة حقيقية. فلم تحطم هذه الشهب أو النيازك رأس إنسان ولا قلعت له عينا. إذن فهي تصطدم بدرع الصيانة

الإلهية وتتحطم. وتستطيع أنت البحث عن سبب لتفسير الأمر فتقول بأنها تصطدم بالغازات المكونة للغلاف الجوي وتحترق وتتحطم. ولكن أيا كان السبب فإن مجموعة جميع الأسباب ليست إلا تجسماً للعناية الإلهية. فالله تعالى وضع كل شيء داخل نظام وضمن حساب دقيق. وهكذا يلاحظ هذا المعنى أيضاً في موضوع مواقع النجوم.

٤- إن نجمة القطب وموقعها المتميز بين النجوم وفائدتها لنا في تعيين الاتجاهات، والمجموعة الشمسية وموقعها ضمن مجرة درب التبانة، ومجرة درب التبانة وموقعها المتميز بين عنقود المجرات، وعنقود المجرات التي توجد فيها مجرتنا وموقعها بين عناقيد المجرات الأخرى وتلاؤم بعضها مع البعض الآخر، وكذلك كون كل كوكب في المجموعة الشمسية على بعد معين ومناسب من الشمس... كل هذه الأمور تشير إلى أن كل شيء في هذا الكون منظم بشكل رائع ومذهل وكأنه قصيدة شعرية جميلة، كما تدل على أهمية مواقع النجوم.

٥- يتم تناول مواقع النجوم في الشرق وفي الغرب بشكل مختلف. ففي روسيا مثلا يستعملون تعبير "الأماكن التي حطت فيها النجوم". بينما لا يستعمل هذا التعبير في الغرب إلا حول الثقوب السوداء أو البيضاء. والحقيقة أنه بجانب المسائل التي يحاول العلم حلها هناك العديد من الألغاز التي تنتظر الحل. وعندما يحل العلم مسألة ما تظهر أمامه فجأة مسألتان أو أكثر.

ويقول بعض المفسرين المعاصرين بأن "مواقع النجوم" إنما تشير إلى الكوازارات والنجوم النابضة. والثقوب البيضاء مصدر ومنبع هائل جدا للطاقة، واليوم يمكن مشاهدتها وتثبيت مواقعها. ويقول العلماء اليوم: إن الثقوب البيضاء بمثابة مزرعة للنجوم تنشأ فيها هذه النجوم ومجموعات النجوم وتنمو. أجل!... إن هذه الثقوب البيضاء تملك طاقات هائلة بحيث لو انمحت مجرة درب التبانة مثلا فجأة بقدرة الله تعالى لكان بمقدور ثقب

أبيض واحد تشكيل مجرة مثل مجرة درب التبانة من جديد. لقد وضعت هذه الأجسام السماوية الهائلة في جسد الكون بدقة متناهية لكي تقوم بوظائفها المدهشة والهائلة بتناغم وتلاؤم ودقة. إذن يبدو أن مواقع النجوم لها دور كبير في النظام الساري الظاهر في الكون. ويقول العلماء الروس عن هذه المواقع بأنها الأماكن التي تنشأ فيها النجيمات ثم تكبر. وهذا القول مهم من ناحية وهي تصديق بأن القرآن يعرف الماضي والمستقبل كمعرفته للحاضر، وأنه أشار إلى "مواقع النجوم" في هذا العالم العجيب.

٦- ثم الثقوب السوداء... هذه النجوم المؤلفة من الإلكترونات والنوى "النوى: جمع نواة". فحينما تفقد الإلكترونات طاقتها تنهار، وعندما تنهار النوى ويتراكم بعضها على بعض تتحول النجوم العملاقة إلى نجوم قزمة. فإن كانت هذه النجوم بحجم الشمس أو أصغر منها تحولت إلى نجوم نابضة. ومع أن هذه النجوم لا تفقد شيئاً من كتلتها ووزنها إلا أن حجمها يصغر جداً، ثم تتحول إلى ثقوب سوداء كبيرة. وهذه الثقوب لا ترى ولكن الضوء المار بقربها يختفي، أي يتم امتصاصه من قبل هذه الثقوب. ويتسارع الزمن فيها. وعندما تختفي الأشـــياء في دوامة هذه الثقوب تحدث أمور تحفها الأسرار، فمثلا إن اقتربت مجموعة كالمجموعة الشمسية من هذه الثقوب السوداء أصبحت لقمة سائغة لها وتحطمت واختفت فيها. ويقول بعض علماء الفيزياء الفلكية عن هذه الثقوب السوداء بأنها "مواقع النجوم".

٧- كان المقصود حتى الآن من النجوم هـــو الأنبياء العظام. فمثلاً آية ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (الطارق: ٣) تشير إلى النجم الثاقب أي النجم الذي ينفذ ويضيء حتى القلوب القاسية المغلقة. وهذا النجم هو رسولنا ﷺ. وكل نبي يعد في وجه من الوجوه نجما بالنسبة لعصره وبموجب مهمة النبوة التي يحملها. والذين يتبعون هؤلاء الأنبياء يسمون ثم يسمون حتى يكونون على صلة وثيقة بالله تعالى. وعندما يقسم الله تعالى بمواقع النجوم يجلب الأنظار

على المواقع السامية لإبراهيم ولنوح ولموسى عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء العظام وللموقع والمنـــزلة الرفيعة السامية لرسولنا ﷺ. وهذا الأمر مهم خاصة بالنسبة لزاوية التفسير الأشعري.

٨- وأود أن ألفت انتباهكم إلى نقطة أخرى ذات معنى عميق وهي أن كلمة "نجم" تطلق على آيات القرآن الكريم. فالمفسرون يقولون: "إن القرآن نـــزل منجماً"، أي نجماً نجماً. ولآيات القرآن الكريم مواقع أيضاً. وللآيات القرآنية موقع عظيم عند العلم الإلهي لا نستطيع مجرد تصوره. فنحن لا نستطيع رؤية قوة صفة الكلام وقدرتها ووسعتها وإحاطتها بشكل تام وكامل. لذا فعند إيراد القسم بـــ"مواقع النجوم" يقسم الله تعالى بموقع القرآن الكريم الحامل لصفة كلامه. لذا فلا يختلف هذا عن القسم بالقرآن المجيد في آية ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق: ١). كما أن للقرآن موقعاً في اللوح المحفوظ. لأنه كان -حتى نـــزوله ليلة القدر- محفوظاً هناك في اللوح المحفوظ. ولم يكن مطلعاً عليه إلا من كان يستطيع الوصول إلى اللوح المحفوظ. لذا فمواقع النجوم تعني مواقع نجوم القرآن الذي هو شرح كتاب الكون، والذي ظهر بإرادة الله وعلمه وقدرته. وهذا يعني أن القرآن الكريم يعد مجموعة أخرى من عناقيد النجوم. مجموعة نجمية تقوم بشرح وتفسير النجوم الموجودة في الكون. أجل!... هناك مثل هذا الشبه بين الكون وبين القرآن. لذا فالقسم بمواقع النجوم هو قسم بموقع القرآن وبمنـــزلته العالية.

٩- الموقع الآخر للقرآن هو صدر جبريل عليه السلام الذي حاز وحصل على مرتبة "الأمين" بفضل القرآن. لذا فالقسم بمواقع النجوم هو قسم بصدر جبريل الحامل للقرآن وبصدور أمثاله.

١٠- وقد يأتي إلى الخاطر أيضاً صدر رسولنا ﷺ والصدور الطاهرة من أمته أيضا في هذا الصدد.

١١- وقد تكون الصدور الطاهرة للمؤمنين الذين يؤمنون بالله ويعدون

القرآن كل شيء، والذين يحسون في أرواحهم عند سماع القرآن بأنه يخاطبهم... قد تكون هذه الصدور موضعا من مواضع قسم الله تعالى. نرجو وندعو الله تعالى أن يجعل صدورنا من تلك الصدور الطاهرة التي تكون موضعاً لقسم الله تعالى.

بسبب هذه المعاني، وكذلك بسبب معان لا نعلمها أقسم الله تعالى بمواقع النجوم الذي قال عنه رب العالمين إنه قسم عظيم.

ونحن نؤمن بالمعاني التي لا نعلمها تماماً كما نؤمن بالمعاني التي نعلمها. لذا نؤمن من كل قلوبنا ونصدق بأنه ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٦).

سورة الحشر

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠]

يجب أولاً أن نعلم جيداً بأن الدار الآخرة والجنة هما المكانان الأصليان اللذان يطرح فيهما الغل والشر من القلوب. ولو أخرجت هذه المشاعر – التي هي من أسس الامتحان– من القلوب في الدنيا لانقلب الإنسان فطرة إلى ملك من الملائكة. بينما خلق الله تعالى الإنسان في هذه الدنيا بماهية قابلة للخير وللشر أيضا. ولو فرضنا المستحيل وأخرجت هذه المشاعر من قلب الإنسان في الدنيا لنبتت هذه المشاعر في القلب مرة أخرى في يوم من الأيام كما ينبت الشعر أو الأظافر من جديد، لأنها لصيقة بفطرة الإنسان. لهذا السبب فبدلا من صيغة الدعاء "إنـــزع" ورد التوجه لله تعالى الفاعل الحقيقي بصيغة ﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحشر: ١٠). إذن فالواجب الملقى على عاتق الإنسان هنا هو التوجه بالدعاء القولي والفعلي لله تعالى ومحاولة التخلص من هذه المشاعر التي تعد مثل الأشواك المعنوية المستقرة في القلب. وبهذه الوسيلة يستطيع التطهر من المشاعر السيئة ويكون أهلاً للجنة ويقبله الله تعالى في رضوانه.

ثم كأن هناك رسالة موجهة إلينا في هذه الآية الكريمة تطلب منا أن نعيد نظرتنا بالنسبة للسلف الصالح. أي قبول التابعين للصحابة وقبول تابع التابعين للتابعين. أي تدعونا للتصرف باحترام تجاه أرباب القلم وأرباب

الكلام من رجال الحركة والفكر الذين تركوا في حياتنا الدينية وفي مشاعرنا وأفكارنا وعقيدتنا، بل حتى في التفسير وعلم الكلام والفقه أثراً لا يمحى وميراثاً كبيراً لنا.

والأمر الآخر الذي يراد توضيحه هنا على ما أرى هو أن كل إنسان يلتذ ويسعد -وكذلك يتألم- بنسبة ترقي وسمو مشاعره وبنسبة نمو هذه المشاعر وتوسعها وتطورها. فمثلاً إن كانت قابلية الحدس عند إنسان حساس متطورة، استطاع هذا الإنسان استخراج معان عديدة من تصرفات الشخص الموجود أمامه، وهذا يكون مصدر عذاب له أحياناً ومصدر رحمة أحياناً. ويمكن القول انطلاقاً من هذا إن مقدار السعادة واللذة التي يحس بها الإنسان في الجنة يتناسب مع مقدار توسع وتطور مشاعره في الدنيا. ومن يدري فقد يقول من لم تتطور وتتوسع عنده هذه المشاعر عند دخوله الجنة: "ليتني كنت قد تطورت أكثر قبل دخولي الجنة" أو يدعو ويقول: "يا رب! أرجعني إلى الدنيا لكي أكمل سيرتي الروحية وأنميها"... ومن هذه الزاوية يمكن القول بأن الإنسان لكي ينعم بلذائذ الجنة على وجهها التام فمن المهم أن يتخلص من مشاعر الحقد والغل والحسد وغيرها. لذا يجب النظر إلى هذه الآية من هذه الزاوية أيضاً.

والحقيقة أنه حسب آية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ اخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وآية ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) فالذين توجد بينهم رابطة الإيمان ورابطة الإسلام عليهم أن يتحابوا ويحترموا أسلافهم، بل ويغضوا النظر عن بعض قصورهم المحتمل، وأن يدعوا بالخير لمن سبقوهم، وألا يحملوا على الإطلاق أي حقد أو غل أو عداء تجاههم. والذين يدعون انتساهم إلى الرسول ﷺ عليهم ألا يفكروا وألا يتكلموا إلا بخير وألا يتصرفوا إلا بخير تحقيقاً للآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:٢).

كم نحن في حاجة إلى مثل هذا الأمر ولا سيما في مثل أيامنا هذه.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠)..... آمين.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]

نفهم من هذه الآية الكريمة أن "الخوف من الله تعالى" موجود حتى في طبيعة الشيطان. وهذا يدل على معرفة الشيطان بالله تعالى وخوفه منه. ولكن مع علمه هذا فهو عاص له. وعندما يذكر القرآن الكريم تمرد الشيطان وعدم إطاعته للأمر يستعمل كلمة "العصيان". والعصيان لا يأتي إلا بعد الطاعة والانقياد أولاً.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا في سورة الكهف عندما يقول:

﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف: ٥٠). إذن فالشيطان باعتبار ماهيته كالجن مخلوق من النـــار. وكان بماهيته هذه يعرف الله، بل ويعبده في عهد من العهود لذا صدر إليه الأمر بالسجود. أجل!... كان الشيطان حسب أمره الظاهر من الذيـــن يتوقع منهم السجود. ولكنه -بطبيعته- كان مستعداً وذا قابلية للعصيان وللانحراف أيضاً. وظهرت طبيعته هذه للعيان بشكل واضح عندما أمر بالسجود لآدم ﷺ، وأصبح من الخاسرين.

وقد قمت مرة أو مرتين من قبل بشرح وجهة نظري حول ماهية الشيطان. لذا لو قمنا بشرح مختصر لهذا الرأي لقلنا بأن الشيطان انحرف عن الطريق عندما عصى ولم يرضخ لأمر السجود، وأظهر بذلك ماهيته الحقيقية. والشيء نفسه وارد في كل وقت بالنسبة لبعض الناس. فقد تأتي لحظات ينحرف فيها الإنسان عن الطريق بسبب مشاعر الغضب والحسد والشـــهوة المركوزة في طبيعته من أجل الامتحان. ويدخل في دوامة مخالفة لضميره فينحرف عن سواء السبيل. انظروا مثلا إلى مشـــاعر الحسد لدى بعض أهل الكتاب ضد خاتم الرسل ومفخرة الإنسانية فقد ساقتهم إلى التمرد وإلى الإنكار فلم يستطيعوا

رؤية النور الذي كان يحمله هذا الرسول الكريم ﷺ. لأنهم كانوا يطمحون أن يكون خاتم الرسل من بينهم، ومن قومهم وقبيلتهم. والشيء نفسه وارد بالنسبة إلينا وإن كان بأبعاد مختلفة. هناك مواقف تتغلب فيها المشاعر على المنطق، والإنسان دون أن يشعر يجد نفسه ضمن هذيان وضمن حركة غير منطقية. والشيطان يعيش على الدوام حالة حقد ونفور وحسد وغيظ من الإنسان. وهو يقول -كما جاء في حديث نبوي- "أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ فلِيَ النار".(1)

ويجوز أنه يطلق صرخات الألم ويهذي كلما رأى إنساناً يسجد. وعندما يؤذن المؤذن في الجامع ويدوي اسم الله الجليل في الأرض ويهرع المسلمون إلى الجامع في خشوع ووجد، لا يدري الشيطان ماذا يعمل ولا كيف يهرب من سماع هذا الأذان.

والخلاصة إنه يزداد حقداً وغيظاً وحسداً من كل عمل يزيد ارتباط الإنسان وعلاقته بربه. فكما إن قيل لإنسان: "إن العصابة الفلانية قتلت ابنك" يكون في غضب دائم وتوتر وانفعال ضد تلك العصابة. ثم إن قيل له: "إن العصابة نفسها خطفت زوجتك" زاد غضبه وانفعاله. إن الإنسان الذي يتقلب ضمن مشاعر الانتقام هذه قريب من اقتراف كل شر، لأن صفة العفو والسماح تكون قد ذابت عنده تماماً.. والشيطان يتقلب في مشاعر الانتقام ضد الإنسان حتى يوم القيامة، ولا يستطيع الخلاص منها.

والنتيجة التي نخلص إليها هي أن الشيطان يعرف الله تعالى إلى درجة الخوف منه ولكنه بطبيعته القابلة للعصيان انحرف عن الطريق، لذا خسر الخسران الأبدي.

والذين انحرفوا في تيار الإلحاد فأصبح الكفر طبيعة راسخة عندهم وكذلك المنافقون هم مثل الشيطان تماماً. ففي ظروف معينة لا يترددون من ذكر الله

---

(١) مسلم، الإيمان ١٣٣؛ ابن ماجه، الإقامة ٢٠١؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٤٤٣.

والدين على لسانهم يريدون بذلك التقية واستغفال الآخرين. ويبدون في صورة المصلحين والصالحين، ولكنهم يحملون على الدوام حقدا لا ينطفئ ضـــد المؤمنين، ويبحثون على الدوام عن طرق ينفسون بها عن هذا الحقد والغيظ. وفي الأوقات التي لا يستطيعون فيها تنفيذ ما ينفس عما يعتلج في صدورهم من غل تراهم يخفون حقدهم وراء ابتســـامة صفراء أو بيانـــات وأقوال لينة، ويتظاهرون أنهم ديمقراطيون. وعندما يصلون إلى القوة التي تمكنهم من فعل ما يريدون تراهم يقولون: "إن الحق للقوة". أما الديمقراطية فتصبح آنذاك أمراً خيالياً أو "فنطازياً"، ثم يرتكب من المساوئ ما لا يخطر على البال.

إن الثقة بمثل هؤلاء تعد عدم احترام لشعور الثقة. أما الخوف من هؤلاء فيعد عدم ثقة بالله تعالى. وعلى المؤمن أن يكون دائما مفتوح الصدر بالحب للجميع، ولكنه لا يغفل ولا يدير ظهره لأمثال هؤلاء، وعليه في جميع الأحوال أن يلتجئ إلى الله تعالى من شر هؤلاء.

"اللّهم إني أعوذ بك من الهَمِّ والحزَن وأعوذ بك من العَجْز والكسَل، وأعوذ بك من الجُبْن والبُخل، وأعوذ بك من غَلَبة الدَّين وقَهْر الرِّجال".[١]

(١) البخاري، الدعوات ٣٩؛ مسلم، الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٥.

سورة المنافقون

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]

تشرح هذه الآية الكريمة بعض الصفات الأساسية للمنافقين. ندرجها كما يأتي:

لهم مظهر خارجي يجلب النظر، مثلاً قد يكونون فارعي الطول ضخام الجثة، أنيقي الهندام يؤثرون فيمن يراهم.

هم أصحاب بيان وفصاحة يستطيعون التأثير فيما حولهم بكلامهم أو بكتاباتهم ويسحرونهم بأسلوبهم الأدبي. عندما يتحدثون يجذبون الآخرين للاستماع إليهم.

وعلى الرغم من هاتين الصفتين فهم منافقون:

أ- هم -بملابسهم الأنيقة- يشبهون خشبا مسندة على الجدران. أجسادهم فارغة ومظهرهم الخارجي ممتاز، ولكن من الصعب قول الشيء نفسه بالنسبة لقلوبهم. هذه القلوب متحجرة وكالخشب فقد طبع على هذه القلوب حسب سر الآية الكريمة ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (المنافقون:٣)، فلا يحومون حول الحق وحول الحقيقة، ولا يستطيعون فهمها وإدراكها.

ب- علاوة على هذا فهم يحسبون كل صيحة وكل صوت مرتفع

عليهم. يقضون حياة مذبذبة بين هذه الناحية وتلك. أما في المواضيع التي يعدها المؤمنون مواضيع حساسة فتراهم وكأنهم جثث أو جنائز تمشي، لا يبدون أقل اهتمام بها. ولكنهم يهتمون بأن يظهروا بين المسلمين في السوق وفي الجامع وفي ساحة القتال. وبسبب هذه الازدواجية فهم جبناء غاية الجبن، لأنهم في خشية دائمة من ظهور وجههم الحقيقي. لذا تراهم يحسبون كل صيحة عليهم.

جـ- إذن فهم يعدون الأعداء الحقيقيين للمؤمنين. وهم يشبهون صنف العقرب الذي لا تعرف متى يلدغك.

د- لذا عليكم أن تصونوا أنفسكم منهم وتحموها لأنهم مستعدون للدغكم في كل وقت وحين. وعندما يقومون بهذا يقومون بدعوى صالح المجتمع وصالح النفع العام.

وفي النهاية يصدر الله تعالى حكمه عليهم فيقول ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون:٤).

كان الممثلون الأوائل للنفاق في العهد النبوي من أمثال ابن أبيّ ومغيث بن قيس وجد بن قيس من ذوي المظهر المتصنع الفخم والهندام الأنيق والذين لا يملكون سوى المظهر الخارجي الفارغ من الحقيقة... كان هؤلاء ممثلين جيدين للنفاق بمظهرهم وبكلامهم المنمق ومغرمين بالحديث الرنان. كل منهم معجب بمنطقه، ومعجب بنفسه إلى درجة النرجسية بالمعنى الكلاسيكي. بينما كانوا في الحقيقة أشخاصا سطحيين غارقين في أنواع عديدة من الضعف. كانوا عندما يتحدثون -حتى ولو كان كلاما جزافا- يحاولون لف حديثهم أحيانا بالغموض وبالإبهام، لكي يبدو شيئا جديدا وأصيلا. أي كانوا يرسمون شخصية إنسان مصاب بداء الاضطهاد وبجنون العظمة. ولولا إرشاد الله تعالى وتنبيهه لاستطاعوا اكتساب موقع جيد عند النبي ﷺ وعند أصحابه. وطبعا عندما كانوا يستمعون كانوا يتظاهرون

وكأهم آذان صاغية. لقد كان كل تصرف من تصرفاتهم عبـــارة عن مظهر خارجي متصنع وخادع... قيامهم وقعودهم... كلامهم وحديثهم... كله كذب في كذب. ولكن معرفة هذا الزيف متوقفة على البصيرة وعلى موهبة ربانية.

ولكونهم كاذبين وذوي وجوه عديدة، ويسلكون ســبيل التقية كانوا يشكون في كل شيء حتى من أكثر التصرفات بـــراءة ومن جميع أنواع الأعمال القائمة على أطهر الأحاسيس والأفكار، ويحسبونها ضدهم، وينظرون إلى الناس بمنظار أحاسيسهم ومشاعرهم العقربية. صدورهم مملوءة بالخيانة لذا فهم في خوف دائم حسب قاعدة "الخائن خائف".

هؤلاء هم الأعـــداء الحقيقيون لأهـــل الإيمان، وعلى المؤمنين -مع احتفاظهم بأسلوبهم الإيماني- ألا يقصروا في صيانة أنفسهم منهم وحمايتها.

قاتلهم الله أنى يؤفكون ووقانـــا الله من شـــرهم ومن مكرهم ومن كيدهم... آمين يا معين.

سورة الطلاق

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]

التقوى حسب رأينا هي اتباع مبادئ الشريعة الغراء بجانب اتباع قوانين الشريعة الفطرية. الأول هو التقوى النفسية "أو الأنفسية" والثاني هو التقوى "الآفاقية". ولا يصح الفصل بينهما أبداً. ولكن ليس من السهل أيضاً الوصول إلى مثل هذه التقوى.

لنتناول الآية أعلاه: فالقرآن يبدأ بشرح الموضوع بـ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ﴾ أي يستعمل فعل "الاتقاء". وهذا الفعل من باب "افتعال". ومن اهم ميزات هذا الباب "المطاوعة". أي قبول الفعل وطبيعة المنفعل، أي يصبح هذا الفعل جزءً من طبيعته وعمقاً من أعماق خلقه.

أجل!... إن ما يراد شرحه هنا هو أن التقوى بُعدٌ من أبعاد الفطرة، وعمق من أعماق الطبيعة الإنسانية. أي تكون التقوى هاجسها في القيام والقعود، وفي كل حال من الأحوال، يعيشها الإنسان في أعماقه ويتنفس به. ويقول القرآن في حق من استطاع تحقيق هذا الأمر الصعب والوصول إلى مثل هذا الأفق ﴿وَمَنْ يَتّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ وكلمة "المخرج" هنا ترسم الصورة النفسية للإنسان المحصور في مكان ضيق وفي حالة صعبة، ومحاولته الخروج والخلاص منها، ويبذل في هذا قصارى جهده.

وهذا الإنسان المحصور في ذلك الوضع الصعب يستخدم كل شي في عالم الأسباب. ولا يبقى هناك باب لا يطرقه، ولكنه مع كل هذا لا يجد سبيل

الخلاص. وفي هذه الأثناء يلتجئ إلى الله تعالى مسبب الأسباب فينجده في الحال. وعندما يسند الله تعالى في هذه الآية "الخروج والمخرج" إليه إنما يشير إلى مثل هذه العناية المفاجئة. لأن "المخرج" هنا مصدر ميمي، ويعني الإخراج. وهو في الوقت نفسه اسم مكان ويعني مكان الخروج أو مكان الإخراج. إذن فهذا الإخراج ليس من الأمور العادية، بل هو من الخوارق، وعمل يسند إلى الله تعالى فقط. والحقيقة أن كل أمر من الأمور في الكون يعد من الخوارق، ولكن لكون الألفة والتكرار يعمي عيوننا لا نستطيع التطلع إلى الحوادث الجارية حولنا بنظرة صحيحة قائمة على ربط الأسباب بالنتائج ولا نستطيع تقييمها التقييم الصحيح. هناك على الدوام ارتباط دقيق بين السبب وبين النتيجة، ولكن لا يمكن لذلك السبب توليد تلك النتيجة.

وحسب نظرة الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله وتقييمه فإنه ليس من الممكن إعطاء الإنسان إلا جزء صغير من الحوادث الجارية لأفعاله الاختيارية كالأكل والشرب. مثلاً لقمة الخبز التي يضعها الإنسان في فمه.... فلو فكر الإنسان في حصته في المراحل التي يصنع فيها الخبز لظهرت الحقيقة من نفسها. صحيح أن الإنسان هـــو الذي زرع الحنطة وهو الذي حصدها وطحنها وخبزها ولكن لو لم يخلق الله الأرض والتراب ولو لم يخلق الشمس ولم يرسل المطر..... الخ أكان بمقدور الإنسان أكل الخبز؟. لنفرض انه تم صنع الخبز؟ ولكن لو لم يُعطِ الله اليد والفم والأسنان أكان بمقدور الإنسان أن يأكله؟ يجب أن ينظر إلى كل حادثة في الكون بهذا المنظار، لكي لا تقوم الألفة والعادة بوضع حجاب أمام عيوننا، ولكي نستطيع أن نرى يد الله وبصمته وختمه في كل حادثة جارية ونتذوق طعم الإيمان في هذه الرؤية والمشاهدة.

والخلاصة أن من يترك الحرام ويؤدي الفرائض، ويتجنب الشبهات ولا يتبعها ويحترز حتى في المباحات ويراعي ســـنة الله والشريعة الفطرية، أي

يراعي دساتير صاحب القدرة والمشيئة، فإن الله تعالى يفرج كل ضيق يقع فيه على اختلاف أنواعه وأبعاده، ويحيطه بألطافه السبحانية التي لا تعد ولا تحصى ويكافئه بها، وينقذه من عيش حياة قذرة، وعند الوفاة يصونه من آلام الموت ووحشته وضيقه، كما يصونه من شدة يوم القيامة.

اللهم اجعل لنا خرجاً ومخرجاً من حيث لا نحتسب. آمين يا معين.

سورة التحريم

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾

[التحريم: ١٠]

قد يتساءل أحدهم: لماذا تكلم القرآن عن امرأة لوط وامرأة نوح؟

يظهر أن امرأة لوط عليه السلام لم تؤمن به، والظاهر أنها ساعدت قوم لوط في منكرهم؛ أو في الأقل كانت من المنافقات، وخانت لوطًا عليه السلام. وعاقبة المنافق أشد من عاقبة الكافر.

كما أن لوطاً عليه السلام كان غريبا وأجنبيا عن القوم الذين أرسل إليهم. فهو لم ينشأ بينهم. وآية ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ (هود: ٨٠) تشير إلى هذا. وفي هذا الوضع الذي كان فيه النبي لوط عليه السلام عاجزا من الناحية المادية ومن ناحية القوة عن الوقوف أمام هذا القوم في الخارج فإن الأمر المخيف أن يتعرض للخيانة من الداخل. ومن هنا يتضح سر ذكر القرآن هذا الأمر وسببه؛ ولا سيما إن تذكرنا أن هذه الخيانة كانت صادرة من زوجته التي كانت تضع رأسها كل ليلة على الوسادة بجانبه.

ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة للنبي نوح عليه السلام فحسب قاعدة "بحسب المغرم المغنم" فقد كان من المفروض الاستفادة من وضع هذا البيت النبوي المملوء نوراً والمرتبط صباح مساء بعوالم ما وراء السماوات. لقد كانت هاتان المرأتان مثل الخفافيش التي تنـــزعج من النور. وحسب مضمون الآيـــة ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ (الإسراء: ٨٧) كانت تريان النور

ظلاماً والشفاء مرضاً؛ فعاشتا خسراناً فوق خسران، لذا كان من الضروري أن تكون حالهما مثل شرارة تشعل مشاعر الخوف والرهبة في القلوب والصدور من جهة ونسمة تفتح أبواب الرجاء فيها.

وكم من أشخاص وجدوا -مثل هاتين المرأتين البائستين- فرصة العيش في أجواء نظيفة، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستفادة من نفحات هذه الأجواء، بل عاشوا -حتى في هذه الأجواء الشبيهة بأجواء سفوح الجنة- بمشاعر أهل جهنم، وتنقلوا من الكفر إلى الخيانة وراوحوا بين الجحود والخيانة، وأخذوا أماكنهم في صف الكفار وليس في صف الأنبياء حتى ولو كانوا أزواجهم، وحاولوا إطفاء نور الله بأفواههم. وهكذا لم يعرفوا قيمة النعم التي كانت في متناول أيديهم من ناحية الإمكان والقوة، ففقدوا إمكانية الكسب وحولوا مكاسبهم المنتظرة إلى خسران مبين فأضاعوا بذلك حتى فرصة الشفقة على وضعهم الأليم.

والتعبير الأصح هو أنهم عاشوا ظلام وظلمات "البعد" بينما كانوا في أفق "القرب". وبينما كانوا يعيشون في إقليم الشموس اختاروا ولوج الثقوب السوداء.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار آمين يا معين.

سورة الجن

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾

[الجن: ١-٢]

لا شك أن الحادثة الغريبة والعجيبة التي تتحدث عنها الآية الكريمة ليست من قبيل الحوادث العجيبة للأساطير. بل يجب فهمها على ما أعتقد على أنها شيء خارق في إطار العلاقات الموجودة بين الإنسان وبين الأشياء المحيطة به وبإسم المنطق الإنساني الذي يضعه القرآن أمام الإنسان.

أجل!... يضع القرآن هذه الحادثة العجيبة أمام الإنسان لكي ينتبه ويلتفت إليها في ضوء أشعة القرآن وأنفاسه التي تهب الحياة. لذا يمكن القول بأنه لولا القرآن لما سمع الإنسان مثل هذه الحقيقة ولما انتبه لها. وفي إطار هذه الملاحظة عندما يستمع هذا النفر من الجن -المطلعين بمقياس معين على بعض أسرار الوجود من وراء الغيب- قالوا: ﴿إِنّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ (الجن: ١). و لم يكتفوا بسماع القرآن بل سلموا أنفسهم للجو السحري للقرآن وأعلنوا بكل اعتزاز إيمانهم به ﴿فآمَنَّا بِهِ﴾. أي أن سماع بضع آيات من القرآن كان كافياً لهؤلاء المطلعين على بعض أسرار الوجود لكي يعلنوا إيمانهم بكل صراحة.

وقد تقابل رسولنا ﷺ مع الجن بضع مرات. فكيف تمت هذه المقابلات؟ لا أستطيع التطرق لهذا الموضوع، لأن رسولنا ﷺ كان شخصا تداخل

وامتزج فيه العالم المادي مع العالم الميتافيزيقي، أي كان عالمه يفوق عالمنا المادي هذا ويتجاوزه، لذا كان هذا الأمر يتجاوز مسئوليتنا وحدودنا.

المهم عندنا أمور أخرى مثل كون رسولنا ﷺ مفخرة للإنس وللجن وأن نبوته ورسالته العالمية شملت الإنس والجن، وأنه بلّغ هذا الأمر، أي استماع الجن للقرآن لأصحابه حسب مفهوم الآية ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الجن: ١)، وأن سماع آيات معدودات كان كافيا لكي يعلن الجن إيمانهم على الفور، بخلاف قريش المتمردة على الإيمان على الرغم من المعجزات والآيات البينات، وإن الفئة المؤمنة من الجن والسعيدة بإيمانها هذا أظهروا رغبتهم وقرارهم بالعودة إلى قومهم فورا لدعوتهم إلى الإسلام في الحال دون ضياع دقيقة واحدة.

ربنا أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

سورة الأعلى

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: ٩]

من لا يضع نصب عينيه أسباب نـــزول مثل هذه الآيات قد يفهمها بشكل خاطئ فيقول: "إن نصائحي لم تفد ولم تأت بخير" أو: "لقد ذكّرهم خمسين مرة فلم تنفعهم الذكرى" أو: "هؤلاء غير مؤهلين للإيمان"... الخ. وهكذا تصاب وظيفة الدعوة والتبليغ بالفتور. بينما الحقيقة التي تشير إليها هذه الآية حقيقة أخرى تماماً ومغايرة لهذا المفهوم ولهذا المعنى لأن هذه الآية الكريمة تقوم بتعليم أصحاب الدعوة وظيفتهم في الإرشاد وفي الدعوة والآية ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ توصي هؤلاء وتقول لهم إن كان تذكيرك مفيدا فداوم عليه. علماً بأن الرسول ﷺ على الرغم من آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦) فإنه داوم على تذكير قساة القلوب من قريش من أمثـــال أبي جهل وعتبة وشيبة وغيرهم. ولا يعلم إلا الله وحده كم من مرة ذهب إليهم وذكّرهم ودعاهم إلى الله. ولو أعطاه الله تعالى فرصة وفسحة أخرى لما توانى عن تذكيرهم ودعوهم.

أجل!... إن أساس وظيفة التبليغ والإرشاد هو تنفيذ أمر الله بدوام هذا التبليغ والاســـتمرار عليه. ولو أخذنا اســـتجابة الناس أو عدم استجابتهم بحسباننا لأدى هذا إلى شيء معاكس ومناف لأهدافنا. انظروا ماذا يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنـــزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧).

وبجانب تذكير الله تعالى لرسوله بوظيفته ومهمته نجد هنا تنبيهاً لطيفاً وليناً له. فكأنه يقول له: ليس هناك أي احتمال حول تخليك عن مسئوليتك وعن مهمتك في التبليغ فليس هذا من طبعك لأنك مفطور على القيام بالتبليغ ولكن مع هذا يجب تذكيرك، فأنت صاحب الخلق العظيم والسجية السامية والفطرة النورانية الذي يسعى نحو اللامحدود ونحو اللانهاية، لذا كان الشعور بمسؤولية المهمة الكبيرة الملقاة على عاتقك متناسبا مع هذه الفطرة السامية.

وحسب الحقيقة التي تكشفها آية ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦) نعلم أن مهمة الرسول ﷺ ومهمة كل واحد منا هو التبليغ والتبليغ فقط.

وهناك وجه آخر لآية ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ وهو أن بعضهم لا تنفع معهم الإرشادات والنصائح، لذا كان من الضروري معرفة هذه الحقيقة منذ البداية لكي لا يقع أحد في اليأس والقنوط، ولكي لا نتدخل في أمور هي خارج مهمتنا ووظيفتنا. لأنه حسب آية ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ فإن المستفيدين من التذكير والتبليغ هم أهل الخشية فقط.

ولكون الرسول ﷺ مكلفاً بالتذكير والتبليغ دون قيد أو شرط فإن آية ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لا تفيد التقييد بل تفيد تأكيد هذه المهمة وهذا التكليف، لأن هذا الكلام البليغ والقوي النازل والموحى به لا بد أن يكون له نفع حتى ولو بالقوة "أي بالاحتمال في المستقبل". أما استفادة السامعين له أو عدم استفادتهم فعلياً فهو موضوع آخر. إذن نستطيع أن نقول استناداً إلى هذه الآية: انصح لأنه لا بد أن تكون هناك فائدة من النصيحة.

اللهم اجعلنا من عبادك الخالصين المخلصين. وصلِّ وسلِّم على سيد المخلصين.

سورة الضحى

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤]

سورة الضحى سورة مكية نـــزلت في أكثر أيام الرسول ﷺ ضيقاً. فقد جاءت أم جميل -زوجة أبي لهب- إلى الرسول ﷺ في أثناء انقطاع الوحي وقالت له: "ما أرى صاحبك إلا أبطأك". في مثل هذه الأجواء نـــزلت سورة الضحى التي قامت بالتسرية عن رسول الله ﷺ وتطييب خاطره قائلة له: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.(١)

عندما نقيّم هذه الآية في ضوء تلك الظروف التي كانت تحيط بالرسول ﷺ علمنا أن معنى هذه الآية تعني أن غدك سيكون أفضل من يومك الحالي، ومستقبلك أفضل من وقتك الحالي.. والتاريخ يشهد بأن هذا هو ما حصل فعلاً. ففي كل يوم كان نجمه يرتفع، ودعوته تتوسع. وكان كل يوم أفضل من سابقه وأكثر بريقا وألواناً. كانت الآيات والسور بعد هذا اليوم تقوم على الدوام بتقديم البشائر له؛ مثلاً ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكْ﴾ (الشرح: ١) و ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ۝ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ (العاديات: ١-٢). كانت أمثال هذه السور مصدر أمل كبير لرسولنا ﷺ. وكيف لا تكون ونحن حتى في هذه الأيام عندما نقرأ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ تظهر أمام أعيننا صورة الخيول اللاهثة التي تثير الغبار وتنقدح الشرارات من تحت أقدامها، أو صورة الدبابات والطائرات الحديثة وكأن الروح المحمدي قد انتصب أمام أعيننا.

---

(١) البخاري، فضائل القرآن ١.

في سورة الضحى نلمس صورة القلق والضيق الفردي والشخصي، وكذلك صورة المستقبل، والانتصار والغلبة الروحية الآتية في المستقبل على مستوى المجتمع. كما تسري في هذه السورة موسيقى حزينة. أما في سورة "العاديات" ففيها موسيقى كموسيقى طبول الحرب. أي أن الحروف والكلمات في القرآن الكريم مختارة حسب مضامينها ومواضيعها بشكل دقيق يحير أولي الألباب من الباحثين والمدققين في هذا الأمر.

كما أن أسلوب سورة الضحى يعرض خاصية نفسية أيضا فعند القيام بالتسرية عن رسول الله ﷺ نرى البدء بالقسم بالضحى ثم بالليل. أي عندما تقول ﴿وَالضُّحَى﴾ تشعر وكأن أشعة شمس الضحى تنير وجهك وعينيك وتغرقك في الفرح والحبور. فإن كنا نحس بهذه المشاعر عند التلفظ بكلمة ﴿وَالضُّحَى﴾ بعد مرور أربعة عشر قرنا، وبعد كل هذه الألفة مع القرآن الكريم، فما بالك بالمشاعر التي ملأت صدر سيد الأنبياء ﷺ وهو يقرأ هذه الآية لأول مرة!... نفسي له فداء.

كما أن "وللآخرة" تعني الغد بالنسبة لليوم، والحال القادمة بالنسبة للحال الحاضرة، وبشارة بالرحمة الشاملة واللطف الواسع القادم بالنسبة للضيق الحالي واللطف النسبي الحالي. فهذه الآية تذكُرُ له وتعده بأن أيام نبوته الأولى في مكة التي اتسمت بالضيق ستفرج نوعاً ما في المدينة وسيتسع محيطها، وأن المشاكل والصعاب الظاهرية والشكلية ستنقلب إلى نعمة... وهكذا تتم بشارته هو أولاً باعتباره الرسول الفذ والفريد في مستوى الكون والزمان، ثم بشارة أصحابه والمنتسبين إلى دعوته ثانياً.

أجل!... فالبشارة له ولأصحابه وللمنتسبين الأوفياء لدعوته. وعند ذكر ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ (الضحى:٤) فهي بشارة لأمته كذلك بأنها ستنقلب إلى حال أفضل، ومن الخير النسبي إلى الخير الحقيقي، ومن الإيمان إلى العمل، ومن العمل إلى الإحسان، ومن الضيق إلى الفرج، وأخيرا البشارة

بأن الآخرة الحقيقية المتمثلة بالجنة والمنتهية برؤية الله تعالى ستكون أفضل من كل ما عداها.

اللهم إنا نسألك الرضا بعد القضا، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقاً إلى لقائك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]

من الممكن فهم كلمة ﴿فَتَرْضَى﴾ في الآية الكريمة على أنها إشارة إلى مقام الرضا على الصورة الآتية: إن الرسول ﷺ جاء إلى الدنيا في البداية كمظهر لمقام الرضا في صورة وماهية النواة. أجل كان هذا المظهر في البداية بمثابة نواة وبمثابة بذرة. فكما تنمو البذرة بعدما تزرعها في التربة فتكون نبتة صغيرة ثم تنمو وتكبر حتى تغطي السماء، كذلك وصل الرسول ﷺ بالإرادة والجهد والعزم الذي أعطاه له ربه مقام الرضا الذي كان في حالة القوة والكمون إلى مقام رضا بالفعل بكفاءة لا يتصورها العقل. إذن فإن أخذنا الرضا المطلق في ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٥) بعين الاعتبار يمكن القول بأنه سيصل حتما إلى مقام الرضا. والسبب في قولنا بأنه سيصل هو وجود كلمة "ولسوف".

والحقيقة إن مثل هذه العاقبة الجميلة واردة بحق كل من عاش حياته ضمن إطار أوامر ربه ونواهيه. المهم هنا ألا يقوم الشخص باستعمال القابليات الممنوحة له استعمالاً سيئاً وفي اتجاهات خاطئة.

كما أن اللام الموجودة في "وللآخرة" وكذلك في "ولسوف" هما لام الابتداء ولكن يحتمل أن يكونا لامي القسم أيضاً. فبعد القسم في الجملة الأولى على أن الآخرة ستكون خيرا له من الأولى، تأتي الجملة الثانية وتؤكد أن الله تعالى سيعطيه حتى يرضى. أي أنك نتيجة تقلب أيامك بين اللذة والألم، والحلو والمر، والمساعدات والمضايقات ستنضج وتبلغ أوج مراتب الكمال بحيث ستجد نفسك بين شلالات السعادة المادية والروحية والفكرية. هناك مدة قصيرة وفترة طبيعية وفطرية في هذه الأيام الحالية متعلقة بـــ"سوف". ولما كانت سنوات "الأولى" لا تقاس حتى بثواني "الآخرة"،

إذن فاصبر قليلا فسترى نسائم الرضا الإلهي وهي تهب عليك وتحيط بك.

آنذاك لا يبقى هناك هم ولا حزن ولا كدر لا للمقتدي ولا للمقتدى به، ولا أي ضر أو قلق. سيجد المقتدى به -باسمه وباسم أمته- كل ألوان وأنواع الرضا والسعادة، ويعيش كل مظاهر "النفس الراضية". أما جواب صاحب الأزل والأبد فهو إيصالهم إلى ذرى مراتب "النفس المرضية". حيث تنقلب هنا القطرة إلى بحر والفناء إلى بقاء وخلود، طبعا مع المحافظة على وضع النسب بين الأصل وبين الظل. حيث تتجلى هنا حقيقة ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩).

اللهم اجعلنا من عبادك الحمّادين واحشرنا تحت لواء محمد ﷺ.

سورة الانشراح

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧﴾ [الانشراح: ٧]

تقدم هذه الآية الكريمة للمسلم فلسفة حركية مهمة ودستورا للحياة. أجل يجب أن يكون المؤمن في حركة دائبة في كل حين. في حركة عندما يعمل، وفي حركة أيضاً عندما يرتاح. وبعبارة أخرى عليه أن ينظم نفسه وفق خطة لا يوجد فيها أي فراغ في حياته.صحيح إنه كإنسان يحتاج إلى الراحة، لذا من الطبيعي أن يرتاح. ولكن يجب أن تكون حتى هذه الراحة راحة نشطة وإيجابية فمثلا من يتعب من القراءة والكتابة يستطيع أن يرتاح بالنوم أو بتغيير وتبديل الجو كأن يقرأ القرآن أو يصلي أو يلعب الرياضة أو يتسامر أو يمزح مع الآخرين المزاح المقبول شرعا... الخ. وعندما يتعب من هذا يرجع مرة أخرى إلى القراءة. أي يكون في حركة مستمرة ودائبة يترك مشغلة من المشاغل لمشغلة أخرى. أي يستريح وهو يعمل، ويعمل وهو يستريح.

وإذا قمنا بتقييم هذه المسألة في إطار الخدمة الإيمانية يمكن القول بأننا كمؤمنين نكون -كما قيل على الدوام- ضمن ألطاف قسرية وجبرية. وحسب أسلوب الخدمة الإيمانية المقبول من قبل، والمطبق على الدوام نرى انعكاس هذا الدستور القرآني في حياتنا كمؤمنين دون أن نشعر. وفي السابق قام بعض أغنيائنا الباحثين عن الرضا الإلهي بالتبرع للطلاب الأذكياء من الفقراء وإسكانهم في الأقسام الداخلية خدمة للأمة. وبعد مدة شعروا أنهم قد أدوا مهمتهم وركنوا إلى الدعة وإلى مشاغل الحياة الاعتيادية فإذا بأبواب

خدمات جديدة وواسعة تنفتح أمامهم وتدعوهم لتذوق أذواق أداء هذه الخدمات الرحبة. كانت القلوب المخلصة تتساءل بقلق: "أيمكن أن تنتهي هذه الأنواع من الخدمات الإيمانية؟ ألا توجد هناك ساحات أخرى وساحات أوسع؟" فإذا بساحات خدمات أخرى وفي مناطق جغرافية أوسع تنفتح أمامهم، وإذا بهم يتذوقون لذة أداء هذه الخدمات في سبيل الله، ويتجرعون كؤوسها مترعة. ثم فتح الله أمامهم ساحات خدمات بأبعاد ومناشط أخرى أيضاً. والخلاصة أنه ما من عهد ظهر فيه ظن قاتل بأن الخدمات قد فرغت وأن أبوابها قد قفلت إلا وقيض الله تعالى أشكالا مختلفة من الخدمة في سبيله وفي ساحات مختلفة. لذا فللتعبير عن مثل هذا المعنى أومأت إلى أننا مجتمع "للألطاف الجبرية". إذن فنحن كمؤمنين وإن لم ننتبه إلى معاني ومحتويات الآية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ إلا أنها تبدو وتظهر في حياتنا بشكل منتظم ومستديم.

وإذا دققنا النظر في أصل المسألة نرى أنه لا يوجد في الحقيقة بديل عن هذا بالنسبة للمؤمن. فأولاً إن كل نعمة من النعم التي أنعمها الله تعالى على المؤمن كبيرة جداً. فكوننا إنسانا نعمة وكوننا في صحة وفي عافية نعمة أخرى. وكوننا نشعر ونحس بهذه النعم -نتيجة إيماننا- نعمة متميزة. أي كل شيء نعمة: أكلنا وشربنا... انتظارنا للحياة الأبدية... انتظارنا للنعم الأبدية نعمة... كل شيء... كل شيء في الحقيقة نعمة. ولكن الإلفة والعادة تنسينا قدر كل هذه النعم وقيمتها. لذا لا نؤدي شكرها كما يجب. كل هذه النعم في كفة هناك نعمة أخرى لا نلتفت إليها وهي: عندما ندير أنظارنا فيما حولنا نجد وجود حروب ساخنة في العديد من الأماكن، ونرى الآلاف من الأشخاص يبكون ويعانون من هذه الفواجع، ونرى المسلمين في العديد من البقاع يتعرضون للظلم، ولقهر واستبداد الحكام الذين لا يكفون عن ظلم المؤمنين. وبينما تجري هذه الحوادث المفزعة حوالينا نستطيع نحن أداء واجباتنا وأداء الفرائض بحرية دون التعرض للظلم والإهانة. هذا طبعا

بالنسبة لحالنا في الماضي وبالنسبة لكثير من البلدان الإسلامية. أليست هذه نعمة كبيرة؟ أوَلاَ يستوجب هذا الشكر؟ إذن يجب أن نسرع من عمل إلى آخر، وأداء واجباتنا -ضمن منظومة الخدمة الجماعية- دون كلل أو ملل، والاستمتاع بتذوق اللذة المعنوية والروحية ونحن نؤدي هذه الخدمات.

أجل ليس من حق المؤمن القول: "لقد أديت ما عليّ و لم يبق أمامي عمل شيء آخر"... لا يجوز له أن يقول هذا وينسحب من الميدان للراحة والدعة. وظيفة المؤمن بعد قيامه بإتمام عمل خيري المبادرة بعمل خيري آخر. عليه أن يرتاح بالعمل، وأن تكون راحته مقدمة لعمل آخر، وأن يعيش اليسر في العسر، وأن يقيم اليسر والعسر على ضوء المشاعر الغيبية والروحية، وأن يتصرف على ضوء أن العالم المادي يكمل العالم اللامادي، وأن العالم اللامادي يكمل العالم المادي، فيعيش كإنسان لم يدع هناك أي فجوة في حياته.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، وصلى الله على سيدنا محمد المرتضى.